والنبذ وينبغي الإقرار بصعوبة تحديد مفهوم جامع لـ "أدب الهامش" لتعدد جوانب الهامش (الهامش الاجتماعي والهامش السياسي والهامش الثقافي والهامش الديني والهامش الإيديولوج)[07] .

وبهذه الإشارات المختلفة يمكن اعتبار الهامش أو التهميش أو ادب الهامش واجهة لفكرة التمرد والخروج عن المألوف وبالتالي هو كل ما لا يعترف بالهيمنة والنمطية والقوالب الجاهزة، فالسلطة هنا ليست سلطة الدولة و لكنها سلطة الكتابة الكلاسيكية التقليدية ، فكل كتابة إبداعية تخرج عن النسق المألوف تعتبر (كتابة هامشية)"[08]

وفي نفس الاتجاه يذهب حسن بحراوي الى اقتراح الاعتماد على آليات نظرية التلقي عند محاولة ضبط أو تحديد مفهوم الهامش بوصفه تلك الكتابة التي تنزاح عن عن أفق الانتظار، فيمكننا " إجمالا وعلى وجه التقريب تحديد كتابة الهامش استنادا إلى مصطلحات نظرية التلقي الشهيرة بوصفها تلك الكتابة التي تنزاح عن أفق انتظار القارئ النموذجي أو المثالي.. أي تخالف ما يتوقعه منها من تكريس للقيم الأدبية السائدة ومسايرة للرياء الأخلاقي الذي تتداوله الآداب وتعلي من شأنه تقليديا...

أمّا نتيجة هذا الانزياح وعاقبته فتتمفصل على التوالي إلى موقفين متناقضين سصعب تبريرهما منطقيا – استقطاب النخب القارئة ذات الميول الانقلابية المناهضة أدبيا للثابت والمكرّس اجتماعيا وأخلاقيا.–استثارة الرقابات الرسمية التي تمثلها الأسرة والمجتمع والدولة وكل ما يندرج في إطار المؤسسة بأوسع معنى ممكن"[09] .

وإن اقترح الأستاذ حسن البحراوي معيار نظرية التلقي وتحديدا كسر أفق الانتظار لدى القارئ كمعيار يوصّف به أدب الهامش وقضاياه العامة، فإن هذا المعيار وإن اختلفت آليته لا يختلف عن الآليات الاجتماعية السابقة، ومن ذلك ما أشارت إليه الباحثة هويدا صالح في بحثها «الهامش الاجتماعى فى الأدب» ، فحددت موضوعة أدب الهامش" فى مقدمة بحثها بثلاثة هى: الهامش الدينى والهامش الجغرافى والهامش النسوى، ثم تذكر فى فصلها الثالث هامشين آخرين هما: الهامش العرقى والهامش الاجتماعى، فتضحى الهوامش خمسة تفتش الباحثة عبرها عن تناول السرد الروائى لبيئات هذه الأشكال أو الأطراف المهمشة، وقدرته على فضح «إقصائها وتهميشها

من قبل المركز/ المتن»، وأن أخلصت فى دراستها للهامشين الجغرافى والاجتماعى اللذين أدمجتهما فيما بعد فى تمثل واحد من تمثلات حضور الهامش فى المجتمع وأدبه"[10] .

يتشكل مفهوم الهامش بحسب النماذج التي وُضعت له من ميدان لآخر وهي نماذج قابلة للتفريع على قاعدة العلاقة بين طرفين أحدهما مركز والثاني هامش، وتتوالد من هذه الثنائية مجموعة ثنائيات أخرى يُدرجها أصحابها ضمن تصورات ثنائية أخرى تحكمها علاقات جدلية أو تآلفية ، ويبدو من خلال ما سيق أن الهامش هو الطرف الأقل والأدنى والأبعد والقصي والدوني عن المركز "وهذا التداخل جعل مفهزم الهامش مفهزما فضفاضا يتسع ليشمل كل أنواع المنبوذين والمقصيين من قبل جماعة ما او من قبل مجتمع بأسره كالسود والفقراء والنساء وغيرهم كثير، ولهذا نرى بعض المفاهيم تدل بصورة طبيعية على المهمّش مثل مفهوم أو مصطلح الآخر، فالآخر هو غير الذات سواء أكانت تلك الذات فردية أم جماعية، جاء في لسان العرب (الآخر بمعنى غير كقولك رجل آخر وثوب آخر) ولما كان السود آخر بالنسبة للبيض ، والفقراء آخر بالنسبة للأغنياء ....فإن ذلك يعني أن الأبيض هو الذات المركزية (المهمِّشة) والأسود هو آخر بالنسبة لها (المهمَّش) . ومن هنا فالآخر هو الكائن المختلف عن الذات" [11]

هذا التوسع المفهومي قد يقودنا إلى مختلف التصورات التي مصدرها في الغالب فكر أو تصور مركزي يختلق لذاته الأولية والسبق والتعالي ، مما يجعله يتغذى بأوهام الفوقية والنقاء والسيادة، وإذا ما اعترفنا سابقا بأن هذه القضية نسبية ومختلف فيها وحولها فإنها مكنت لنفسها من غرس أنساق ثقافية نضمرة في اللاوعي الجمعي تشرعن لذلك التعالي والفوقية والهيمنة تحت استعارات ومرجعيات مختلفة منها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثاقفي ...ويمكن توسيع الدائرة إلى حقول أوسع. فالعلاقات بين المركز وتقباته ، الأنا ، الذاتية ...والهامش وتنويعاته الآخر ، الغيرية ..بالإضافة إلى تمظهراتهما ضمن ثنائيات متنافسة أو متصادمة مثل شرق/غرب أو غنى/فقر ونحوها من الثنائسات المتعالقة، إنما تعود إلى الإدراكات القائمة على المتخيل .

"فالعلاقة هي في الغالب خيالية أو توهّمية، وكما يعترف مثلا ابن عربي في العصر الوسيط أو دريدا في العصور الراهنة الوهم هو أشدّ وطئامن الحقيقة، له سلطة التحكّم في التمثّلات والأفعال ، فلا شك ان العلاقة بين الذات والآخر (الذات أيضا هي الآخرن والآخر أيضا ذات) تكتنفها الالتباساتما دامت النوايا مضمرة والغرادات غير محددة المعالم فتتعامل الذات مع ما تصطنعه في خيالهاحول الآخر وليس هذا الآخر كما يتبدّى في حقيقته الواقعية"[12]

وعندما أشرنا سابقا إلى مسألة الدونية التي يُفترض أن يكون عليها الهامش أو غيرها من العناوين التي تدخل ضمن مسميات الدونية أو التخلف فذلك لا يعني بالضرورة أنها من المسلمات أو انها

من الحقيقة ما دمنا قد افترضنا مسبقا بأن قيمة الهامش أو التهميش (عندما تُتناول باعتبارها قيمة سلبيةعلى) هي نسبية والمقصود بالنسبية هنا أنها لا تتسم بصفات الثبات والديمومة ، ويمكن تعميم ذلك كثير من العلاقات التراتبية والهرمية لاتي اختلقتها المركزيات المختلفة بدوافع الهيمنة والتسلط والتفوق "فإرادة الهيمنة مسوغها هو الرغبة في التفوق وضرورة أن يكون هنالك غالب ومغلوب أو متفوق ومتخلف ، فكل حضارة راقية تنشئ علاقة تراتبية أو هرمية تستبعد من خلالها ما عداها من الثقافات المهمّشة لتنفرد بالتفوق والقوة في تجلياتها السياسية والعلمية والاقتصادية والعسكرية، فمن طبع المتفوق أن يحافظ على تفوقه وتقدمه المادي والفكري، ومن طبعه أن يتمركز لتحوم حوله الهوامش الثقافية على سبيل الاذعان والإعتراف بالشوكة والعظمة". [13]

إن هذا التمركز الذي تسرب من سلطة التفوق والهيمنة إلى مختلف العناصر الثقافية والفكرية والاجتماعية يدعو إلى التفكير إلى صياغة مقولات للهامش تتوسع إلى بنى ثقافية واجتماعية اعم وأشمل ، فالهامش عوالم متخيلة اصطنعها "الأنا" ليبرر أوهامه السردية والشرعية، وهو ما يقودنا إلى استنتاج مجموعة مستويات متفرعة للتعبير عن موضوعات الهامش ولعل اهما : المستوى الاجتماعي أو ما يطلق عليه أحيانا الهامش الاجتماعي ، قالمستوى الاقتصادي(الهامش الاقتصادي، ثم المستوى السياسي(الهامش السياسي) المستوى النفسي أو الهامش النفسي ونموذجه العزلة واخيرا المستوى الثقافي والذي تدخل ضمنه جميع الأنساق الثقافية باجناسها الأدبية والتعبيرية المختلفة. ولذلك قسم بعضهم عوالم الهامش والمهمشين انطلاقا من هذا التصور فهو عموما عندهم : هامش اجتماعي وهي إقليم يقع على هامش منطقة ثقافية معينة تلتقي فيه ثقافتان أو أكثر وتحل فيه السمات الثقافية للثقافات المجاورة " وهو ما يمكن تفسيره أيضا بالاستلاب الثقافي الناتج عن الانبهار بالمركز / هامش اقتصادي وفيه هيمنة اقتصاديات الانا تصنيعا وتفوقا على الآخر مما يجعله مستهلكا تابعا ويفقد مع هذه التبعية كل مقومات الذاتية / هامش سياسي تتشكل فيه سلطة سياسية نافذة على حساب اخرى إما لضعفها أو لعجزها ، هامش أدبي ويراه البعض الادب الدوني او السوقي..[14]

وبمراجعة التحليلات السابقة فإن هذه الهوامش صناعة مركزية إما بسبب عامل التفوق العسكري ةالسياسي والثقافي، أو بسبب اطلاق تصورات المركز لبنيات وسياقات متخيلة أوهمت بوجود هامش نظمته وفق بنى ثقافية محددة قد يكون ادق تمثيل لها العلاقات بين الأنا والآخر وما أنتجه من سجالات بين المركزيات عبر العصور.فعندما نتأمل الصورة التي رسمها الخيال المتوفق والمهيمن الغربي لوحشية الشرقي نجدها تصنع سرديات تكرس الهيمنة والتفوق للأنا على حساب الآخر المتخلف أو الهمجي [15] ، فالتهميش باعتباره مصطلحا في الدراسات الأدبية الحديثة خضع

لسلسلة من الانتقالات عبر حقول معرفية أكسبته أبعادا موضوعاتية جديدة وفق السياقات والوظائف التي شكّلته، كما أن ارتباطه بظواهر اجتماعية (مجموعات وسلوكات وقيم) ضمنته أنساق معرفية وثقافية سوف تمكننا من قراءته بحسب السياق التاريخي والثقافي للمنتج وللملتقي، فقراءة الهامش في شعر الصعاليك مثلا سيرتبط حتما بالمركز الذي أنتج شعريتهم لا باعتباره سلطة فحسب لكن باعتباره نسقا ثقافيا مغايرا، وإذا قرأنا الهامش في المقامات أو في بخلاء الجاحظ أو الادب المرتبط بالتشرد فإن هذه القراء لا يمكنها ان تنفصل عن الخطابات التي وجّهتها خاصة منها خطابات الاختلاف في السياسة والفلسفة والتصوف وغير من مظاهر الثقافة والمعرفة العربية القديمة، وهو ما سنتناوله بالتحليل والشرح في بقية مداخل هذا الكتاب .

الهوامش

-1 2016/03/21 http://revistas.ucm.es/index.php/AGUC/article/viewFile/AGUC9595220109A/31517 الساعة العاشرة)

2-: http://www.dominiqueroux.fr/wp-content/uploads/2014/01/Guillard-et-Roux-2013-De-la-lexcentricit%C3%A9-Revue-Economies-et-Soci%C3%A9t%C3%A9s-pauvret%C3%A9-%C3%A0-%C3%A0-para%C3%AEtre.pdf

3- بركات محمد أرزقي ،الثقافة الهامشية و أثرها على الانحراف "دراسة ميدانية نفسية اجتماعية " رسالة دكتوراه في علم النفس الاكلينيكي. جامعة الجزائر ، 1988.ص 26-27.

4-حسن البحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية ، مجلة علامات ، مكناس، المغرب، العدد18، 2002، ص9. يوم 2017/03/21 الساعة 11.53 [1]http://www.saidbengrad.net/al/n18/pdf18/2-18.pdf

5- - حسن البحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية ، مجلة علامات ، مكناس، المغرب، العدد18، 2002، ص9. يوم 2017/03/21 الساعة 11.53

06- ديوان الاحنف العكبري – ص: 253 نقلا عن : أحمد الحسين –الأحنف العكبري شاعر المكدين والمتسولين – مجلة التراث العربي –دمشق. ص : 219-220

7- الأدب النسوي بين المركزية والهامش. خليل سمية /مشقوق هنية. بتاريخ 2017/03/21 الساعة 17.26 . https://reVues.univ-ouargla.dz/index.php/02-2012/102-2013-04-24-10-51-18.html

.08- أحمد ندا ، أولاد البلد : أدب المهمشين بين النخبة و الصعاليك ، ينظر الموقع : masr.20at.com/newArticle.php?sid=9400 - 56k، بتاريخ : 2016/03/06.

09-حسن البحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية ، مجلة علامات ، مكناس، المغرب، العدد18، 2002، ص9. يوم 2017/03/21 الساعة 11.53 -[1]http://www.saidbengrad.net/al/n18/pdf18/2-18.pdf

10- د. حسن عطية كتاب «الهامش الاجتماعى فى الأدب» لهويدا صالح مهمشون لكن نبلاء.. انحياز أيديولوجى أم نقد موضوعى؟